



# الزمن إدراك معرفي وليس علاقة جدلية مع الاشياء

علي محمد اليوسف 2022-09-19 -

حين يصبح الزمان عند باشلار موضعة ادراكية للذات معبراً عن تجلياتها النفسية الرومانسية المحدودة بحدود مواضيعها يكون حينها الزمان أصبح خارج مطلقه الميتافيزيقي ليكون مدركاً محدوداً يتمثله العقل، وقتها ايضاً لا نجد أدنى غرابة في اعتبار باشلار تأملات النفس حول ما يطلق عليه حتمية اندثار الانسان بالموت، التي عادة ما تنفر النفس من مواجهة هذه الحقيقة البيولوجية المرعبة من هول الصدمة عليها، كما ينفر الجواد من رؤيته جثة حصان فارق الحياة مطروحا ارضا على حد توصيف باشلار.

باشلار يتقبل فكرة أن ينفصل الانسان عن ذاته خارج وعيه لذاته وموضوعه معاً، لكنه من غير المتاح أمامه تقبله تصور أن الزمن يقوده نحو حتمية الاندثار العدمي بإفنائها البيولوجي بالموت كاملاً جسداً ونفساً وعقلاً. الزمن لا يفني الانسان بل يلازمه طيلة حياته. الذي يفني الانسان هو الموت (العدم) وليس الزمان. مقولة باشلار الانسان يمكن ان يكون وجوداً خارج وعيه لذاته وموضوعات ادراكه خطأً. وجود الانسان إدراك عقلي وبانتفاء ادراك عقل الانسان لذاتيه وموضوعه عندها لم يعد هناك وجود انسان بأبعاد نفسية او خيالية او غيرها.

عبارة باشلار تحمل الكثير من الملاحظات في إمكانية الانسان الانفصال عن ذاته، حيث لا يمكن أن تكون حقيقة مقبولة إلا في حال توفر أكثر من إشتراطين لا يتوفران إلا في حال جعل وعي الذات وعياً ميتافيزيقياً لا تحده انطولوجياً الوجود الادراكي وهو محال للاستحالات الادراكية التالية:

- أن يتوقف العقل عن وعيه لذاته.

- أن يتوقف العقل عن التفكير التجريدي بموضوع مادي أو خيالي.

- أن يتوقف العقل عبر منظومته الحسية الادراكية عن وعي الوجود من حوله.

إن محاولة باشلار نقل الانسان من حتمية زمانية إندثاره بالموت الى واقعية التعامل مع الزمان كمحتوى تذكاري لمخزون رومانسي بالذاكرة إبتهاجي متفائل بالحياة التي لا نجدها في حاضرنا ولا في مستقبلنا بل في ماضينا الاستذكاري الرومانسي فقط. حتى جمالية المكان القديم التي نتذوق استذكاراتها نفسياً بكل نشوة وغبطة وانتعاش رومانسي لذيذ إنما السبب في ذلك هو العودة للماضي كتاريخ بدلالة زمنه الماضي المتموضع



فيه تجريدا كدلالة وليس العودة الى زمن ماض جديد نتعرف عليه لأول مرة تخلقه الرغبة النفسية في الاستذكار لحوادث الماضي. عبر إستذكارات المخيِّلة في عبورها حاجز الحاضر المقلق المرعب نحو الماضي البهيج المفرح. عقل الانسان او النفس عاجزين عن خلق زمن والاستذكار للماضي يكون مكانيا وليس زمانيا بمعنى الماضي اكتسب زمانيته بدلالة تحقيب وقائعه التاريخية.

هنا ربما أستبق الامور القول أن العودة الاستذكارية نحو الماضي هي عودة (تاريخية) استذكارية للمكان وليست عودة (زمانية) لزمن يدركه العقل.. لاحقا أوضح هذه الاشكالية الفلسفية.

الانسان أمام هذه الحالة في جعل ما هو مادي يتداخل مع ما هو ميتافيزيقي يدركهما العقل معا في تداخلهما إنما يكون دافعها هو إرادة الهروب الى أمام في محاولة خروج الانسان من حتمية مسار الزمان الانحداري الهابط به نحو الاندثار النهائي بالموت والفناء، في لجوئه إبتداع زمانا إستذكاريًا تجريديا ليس مطلقا في وحدته الوجودية التي تختلط فيها الالام والاحزان في تذويها بمصهر التفاؤل والامل بالسعادة الخادعة نفسيا. لذا يطلق باشلار على هذه الحالة النفسية التي تحاول النفس تطويع مسار التاريخ المتعثر الى ما اسماه "سلسلة من القطوعات الزمانية" حسب تعبيره.

وفي حقيقتها هي قطوعات استذكارية نفسية لا علاقة إرتجاعية لها في ملازمة الزمان الحاضر لها نحو إستذكار زما ماضيا بحوادثه ووقائعه وليس رغبة اكتشاف الزمان الماضي كزمن خالص عن ملازمة تحقيب التاريخي. هو غير الزمان الماضي الذي يحتوي تاريخية وقائع وأحداث جرت فيه فاصحت جزءا من تاريخ ماض ثابت مدون زمانيا.

فالزمان لا يعود الى الوراء في مطلق التجريد كماهية غير مدركة بل يعود الى الوراء (الماضي) كتحقيب تاريخي غير تابع لزمن يقوده بل لزمن يسترشد به كتاريخ في وقائع حدثت. من الغريب الاقرار بحقيقة المكان يقود الزمن وليس العكس كما نتصور خطأ. الزمن وجود ملازم ومحيد للمكان.

حين نغادر الزمن كمفهوم ميتافيزيقي مطلق ازلي لا يدرك مجردا إلا بدلالة حركة مكانية لأجسام يحتويها عندها يمكننا التسليم أن الزمان تسوده قطوعات هي في منطق علم الفيزياء عارية عن الصحة تماما. فالزمان التجريدي عن موضوعاته المكانية الادراكية لن يكون سببه محدودية العقل قابلية إدراكه زما مجردا عن ملازمة أشيائه والتعريف بها.

الزمن يجهله العقل ماهويا حتى بدلالة ادراكية للمكان. كما ولا يمكن للعقل جعل الزمن موضوعا تجريديا



يدركه. اي العقل لا يدرك الزمن بغير ملازمته مكانيا للأشياء والاجسام. حين نجد رمز الزمن حرف T في المعادلات الرياضية الفيزيائية والكيميائية انما يكون التعامل معه تنظيرا تجريديا يختلف عن الزمن الواقعي. الشيء الأهم أن الزمان على الارض وفي الكون يمتلك خاصية ماهوية واحدة هي أنه وحدة من جوهر أزلي يحكمنا نحن والطبيعة ولا نقوى على إدراكه ومعرفته الا بدلالة غيره من حركة أجسام أو مواد تداخله في انفصالية ماهوية.

من البديهيات التي نتمنى القفز من فوقها عبثا هي أن الارادة الانسانية ورغائب النفس لا تؤثر بمسار الزمن في مطلقته الحتمية الحركية المتجهة دوما نحو الامام المستقبلي الذي هو اقتراب لا إرادي نسلكه في السير نحو الفناء وليس الحصول على التجديد في الحياة السعيدة بوفرة المتعة واللذة التي تزودنا بها المخيلة في إستذكار حوادث الماضي ونحن نتجه مرغمين طواعية في اقتناصنا اكبر متعة في طريق مسار حاضرا مرغمين نحو مستقبل مجهول ليس كما رسمناه ورديا سلفا.

الادراك النفسي العقلي يتوقف تماما أمام استحالة معرفة ماهية الزمن وكيفية إدراكها مجردة عن الحركة المادية للأشياء حتى لو تيسر لنا ذلك على مستوى الصفات للزمان فقط وهو محال. فصفت الزمان وهم لا تعرف بدلالة غيره في مقدار حركة الاجسام فيه. والزمن وحدة قياس حركة الاجسام المادية داخله لكن الزمن ليس حركة بذاتها مجردة نستطيع إدراكها لوحدها... كما لا نستطيع إدراك المكان (الأشياء) من دون ملازمة الزمن لها. الزمن ملازمة مكانية محايدة في دلالة ادراكية لا تعرف صفاتها ولا ماهيتها مجردة.

لذا فالزمان الذي تتنابه القطوعات المتعاقبة وحتى القفزات النوعية فيه إنما هي في حقيقتها تمثّل انعكاسات قطوعات ادراكنا نتائج حاصل تفاعل تكامل معرفي لا جدلي وجودنا الذاتي مع مدركاتنا المادية في الطبيعة والعالم الخارجي التي نتعايش معها وليست حصيلة فاعلية إرادة إنسانية أو رغبة نفسية ينفذها الزمان استجابة لنا. لا توجد قطوعات زمنية نوعية خارج مسار مطلقية الزمن في ماهيته الموحدة وصفاته الموحدة ايضا. الزمان لا يدرك ولا يفهم لا بالماهية ولا بالصفات.

الزمان جوهر ماهوي محايد لا يحكمه الجدل الديالكتيكي بعلاقته بمدركاتنا الموجدية في عالمنا الطبيعي المادي. الزمان جوهر تكاملي مع المدرك المكاني معرفيا وليس جدلا ديالكتيكا معه. وحين نعتبر الزمان في تعسف خاطئ أنه جدلي ديالكتيكي في تداخله الإدراكي مع الاشياء والنفس والذات وغيرها فهو بالمحصلة هراء لا قيمة له، هذا الخطأ يعني أننا نجعل من الزمان مدركا متموضعا بالذات مجردا يعيه العقل تجريدا حتى من غير تعالقه بالمكان وهو امر مستحيل تحقيقه. كي تكون علاقة الزمن بادراك المكان جدلية يجب ان يجتمعا الزمن والمكان في تضاد جدلي تجمعهما المجانسة النوعية الواحدة اي ان تكون صفات وجوهر المكان



مطابقة لصفات وجوهر الزمان وهو محال ينفي ان تكون علاقة الزمن بالمادة علاقة جدلية وليست علاقة ادراكية معرفية.

## كانط والزمان

إدراكنا المكان لا يكون مجردا عن زمانيته الإدراكية كما نتوهم، لذا إعتبر كانط ما ندركه مكانا هو ما ندركه زمانا بنفس الوقت، ولا إنفكاك يحكم الإدراكين المكاني والزمني. وهو الشيء الصحيح فلا وجود لإدراك مكاني مجردا عن زمانيته، كما لا وجود لإدراك زمني مجردا عن مكانيته في الموجودات والطبيعة من حولنا. ولا اسبقية تفرق بينهما.

الزمان في مساره الذي يبدو لنا مسارا مجردا من ماديته هو مسار متعثر بمحتواه الوجودي المدرك ذاتيا، ما يجعله مستقلا متحكما بنا لا نتحكم نحن به، رغم إقرارنا المسبق أن الزمان يتعامل مع المادة إدراكا محايدا وليس تداخلا تموضعا تكوينيا ماديا أو غير مادي جدلي بها وكذا مع العديد من مسارات الحياة.

علاقة الزمن بأدراك الأشياء هي علاقة ابستمولوجية معرفية محايدة بالاحتفاظ بخصائصها النوعية. المكان والأشياء لا تفرض على الزمن الذي يلازمها ان يكون جزءا تكوينيا منها. هنا لا اعتقد ياسبرز كان دقيقا في تعبيره (الزمن هو بعد سببي للزمان). الخطأ بالعبرة ان الزمن هو طرف ملازم لما نقصد به الزمان اي (زمان + مكان) في تعالقه الادراكي للمكان. لذا من المتعذر ان يكون الزمن بعدا سببيا لوجوده الذاتي في ملازمته المكان.

ولتوضيح هذه النقطة نقول مثلما تموضع إدراك الذات للأشياء لا يفقدها استقلاليتها عن مدركاتها، كذلك يكون معنا نفس الشيء حينما يتموضع الزمان إدراكيا في العديد من الامكنة فهو أي الزمان يبقى محتفظا بانفصالية مستقلة عن مدركاته ولا يخسر في موضعه شيئا من تلك الخصائص التي يمتاز بها وحده. التموضع الزمني في الأشياء هو إدراك لها وليس تداخل إندماجي عضوي تكوينيا معها.

لذا تكون إنعكاسات النفس الواعية تماما هي التي تضيء على إستقلالية الزمان المحايدة الكثير من الأحكام التي تشرعها النفس هي وتحاول فرضها زمنيا. فمثلا الملل من طول وقت إنتظارنا لمجيء شخص ما في وقت محدد، ليست هي خاصية زمانية سببية بل هي خاصية نفسية نستشعرها لا علاقة للزمان بها. تعبيرات النفس ليس سببها الزمن الذي تمر به ولا علاقة تربطها بالزمن خارج اولوية ارتباطها بالذات.

## الزمن الحاضر الوهمي



يذهب معظم فلاسفة اليونان القدماء منهم الرواقيين يتقدمهم هيراقليطس وبارمنيديس انهم يعتبرون الحاضر هو آنية لازمانية غير مدركة ولا وجود لها كتحقيب زمني يتوزعه الزمان الماضي والحاضر والمستقبل.

هذا الفهم قال به بارمنيديس وأيده افلاطون وارسطو إذ نجده يقول " الآن - يقصد لحظة الحاضر - هو نقطة ابتداء تغييرين متعاكسين، - يقصد بهما شد الماضي للحاضر لموضعه وتذويته به من جهة، وشد المستقبل المعاكس للماضي في محاولته تذويت الحاضر له وأدغامه به من جهة أخرى، علما أن الحاضر لا يحتاج البرهنة على أنه مستقبل حركي سيرورة غير منظورة في حاضرمتحرك يحده زمانا. - وذلك والكلام لبارمنيديس التغيير لا يصدر عن السكون. كما أن النقلة - يقصد النقلة الزمانية - لا تبدأ من الحركة التي لا تزال متحركة، وهذه الطبيعة الغريبة للآن (الحاضر) قائمة في الفترة ما بين الحركة والسكون لذا فهي خارجة عن كل زمان . القول لبارمنيديس.

بداية طالما كانت الحركة والتغيير هما سمتا وصفنا كل موجود بالعالم منذ هيراقليطس، فإن حركة الحاضر غير المتعينة كقطوعة زمنية لا ادراكية إنما تنسحب علي كل شيء يحكمه التغيير وعدم السكون وفي المقدمة يكون دلالة الماضي بمقايسته بالحاضر الذي لا وجود زمني له فهو بفهم بارمنيديس الماضي حركة لازمنية يحكمها زمان متحرك وليست سكونا زمانيا مدركا، لأن حركة الماضي تعاكس المستقبل الذي يحاول تذويت الحاضر به.

وطالما النقلة الحركية لا تبدأ من حركة كما في تعبير بارمنيديس، فهذا يلزم عنه أن يكون الحاضر هو سكون يمكن ادراكه وهو أستنتاج لا يقبله العقل قبل الفلسفة بدلالة الزمان مفهوم كلي لامتناهي ليس له صفات ادراكية مستقلة ثابتة ونسبية به وليس له ماهية يمكن ادراكها. والآنية الحاضرة ادراك زمني بدلالة حركة الاجسام والموجودات في الطبيعة وليس زمانا في معيار الادراك المادي المكاني الساكن لها..

لأن الحاضر قطوعة زمنية تحقيبية ماديا من زمن مطلق لانهائي لا تحده حدود ولا يتقبل التحقيب المحال زمانا في تحديده كمدرك لانهائي سرمدي ازلي. وهذا المعيار لا يستثني الماضي كزمان وليس انثروبولوجية تاريخية في الماضي ولا يستثني المستقبل بدلالة كونهما قطوعات زمنية وتحقيب تاريخي متحرك ايضا لا يمكن ادراكه كونه يتسم بالحركة السيرورية التي لا يمكن رصدها وتعيينها بغير دلالة حركة جسم مادي يتحرك في الحاضر الزمني. هنا يتوجب علينا الانتباه في التفريق بين قولنا الماضي كتاريخ انثروبولوجي عاشه الانسان كزمن انتهى أصبح ثابتا فهو يتسم بالسكون أكثر من الحركة، بخلاف فهم أن يكون التاريخ زمانيا حركة لها تأثير مباشر في كل من الحاضر والمستقبل. زمن تاريخ الماضي هو حركة مكانية وليست حركة زمنية. فالزمن الاسترجاعي للماضي لا يجعله تاريخا متحركا لا تحكمه مكانية ثابتة هي وقائع التاريخ.





الماضي كزمن هو دلالة فهمنا الحاضر وفهمنا الماضي هو بدلالة الحاضر له. التحقيب الزماني ماض وحاضر ومستقبل هو دلالة إدراك الزمن الارضي وليس ادراك الزمان الكوني. الزمان الارضي المرتبط بحركة الاجسام وحركة الارض والقمر، يختلف عن الزمان الكوني باعتباره لا مدرك ازلي سرمدي ولا يقبل التجزئة والتحقيب كما هو الزمان الارضي.

وفي حال ذهبنا مع بارمنيدس أعتباره الحاضر الزماني لحظة تتوسط الحركة والسكون للماضي والمستقبل ولكنه أي الحاضر لا يمتلك حركة ولا سكونا ويتعذر رصده ادراكا زمانيا لذا فهو نقلة وهمية، فهذا يعني أن الحاضر وجود وهمي كحظة تحقيب زماني زائلة، وأهم ميزة لقطوعات تحقيب الزمان هو أن الزمان كلية ازلية سرمدية جوهرية تحكم كل شيء بالوجود وهو غير مدرك لا بالصفات ولا بالماهية. أي أن زمان الماضي وزمان الحاضر وزمان المستقبل ثلاثها تعبيرات عن قطوعات زمنية تحقيبية ارضية لا يمكن ادراكها كمفاهيم ولا كمواضيع مستقلة بدلالة عدم امكانية ادراكنا الزمان كمطلق ازلي ليس له حدود ولانهائي.

باستثناء اننا ندرك هذه القطوعات الزمانية الارضية واختلافاتها بدلالة حركة الارض حول نفسها وحول الشمس وحركة القمر والكواكب الاخرى وقبل كل هذا حركة الاجسام والمدركات في الطبيعة وفي الحياة التي نعيشها التي بدلالاتها جميعا ندرك الزمان في تحقيب الزماني لا في تحقيب الوقائعي تاريخيا كحوادث يلازمها زمن حدوثها الذي يجعل من حضورها الآني ماضيا ... الحقيقة التي تجعل الفلاسفة يعتبرون الحاضر وهم زماني غي موجود هو لانه ماض ومستقبل ولا يمثل نفسه زمانا حاضرا يدرك لوحده مستقلا عن حركة المكان داخله. حركة التاريخ ماض لا يدرك بغير دلالة زمانية، في حين يكون الزمان يدرك من غير دلالة تاريخية تؤطره والسبب ان الزمان مفهوم مطلق والتاريخ مصطلح يدرك بوجوده التحقيبي زمانيا على الارض.

\* الآراء الواردة في المقال لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبا المعلوماتية.